

نظم التعليم فى بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية نظم التعليم فى بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية

د/ فوزية محمد نوح

قسم التاريخ- كلية الآداب - جامعة الزقازيق

مقدمة:

التعليم هو الصناعة الأولى والأهم لأى دولة تستهدف تعبئة وتوجيه الطاقات البشرية من أجل النهوض والرقى والتقدم لمجتمعها ومما لا شك فيه أن النظام التعليمي بالمغرب قطع عدة أشواط على درب بناء مدرسة تستجيب للحاجيات والطلبات المتزايدة على التعليم، وإذا كانت المبادئ الأربع قد شكلت ولزمن طويل بوصلة تقييم نجاح هذا النظام وأرضية لنقد إنجازاته، فقد أضحى الميثاق اليوم بمثابة المرجعية للقيام بتلك المهام اعتباراً لكونه يمثل آخر البرامج الإصلاحية المقترحة للتعليم.

إن نظم التعليم فى بلاد المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط كما رسمته هذه الدراسة - لم تكن مجرد رصيد معرفى يلقن للمتعلم وإنما كان عبارة عن اتجاه، وفلسفة وسياسة متبعة خصوصاً عندما ارتبط أكثر بالمدارس على حساب الرحلة العلمية، وبذلك أصبحت المدرسة النظامية الوسيطة تتحكم فى سوسولوجيا الأطر التى تخرجها باعتبارها إفران لوضع اجتماعى، وقانونى، وسياسى لتحديد بذلك علاقة خريجها بالمجتمع والدولة والنظام التعليمى ذاته، هذا الأخير الذى لم يكن بمحيد عن المجتمع والسياسة بل تأثر سلباً وإيجاباً بتحولات العصر الوسيط، مما جعل التعليم يساهم فى الحراك الاجتماعى آنذاك.

وقد ارتبطت نظم التعليم فى بلاد المغرب منذ الفتوحات الإسلامية إلى يومنا هذا بالمدارس القرآنية أو التعليم الإسلامى أو التعليم الأصيل، وقد قامت هذه الدراسة بتلقيين العلوم النقلية كالعلوم الشرعية والعلوم اللغوية والمعارف الأدبية عن العلوم العقلية والكونية، وقد ساهمت هذه المدارس فى نشر الدين الإسلامى والتعريف به فى كل أنحاء بلاد المغرب. ويشير مفهوم النظم التعليمية لبلد من البلدان إلى الإطار العام للتعليم وفلسفته وأهدافه وتنظيمها المؤسساتى والإدارى على ضوء قيمه الدينية والاجتماعية وأثره الحضارى والتاريخى وثرواته المادية والبشرية، وفى إطار تفاعل إيجابى مع هذه العناصر مجتمعة مع الرؤية فى النظم التعليمية، لأن الأنظمة التعليمية محكومة بالتطور لأنها موجهة لمجتمعات دائمة التحول والنمو وذلك فنجد فى الدول المتقدمة الناجحة فى نظمها التعليمية أنها مرنة ومنفتحة على التطور تعد العدة للمستجدات فتأخذ بعين الاعتبار المراحل التى يمر منها المجتمع وحاجيات كل مرحلة عكس الأنظمة التعليمية فى المجتمعات النامية التى تحكمها أنظمة استبدادية تستثمر فى الجهل وتفقد الرؤية المستقبلية فى بناء السياسة التعليمية وذلك تبقى نظمها منغلقة.

د/ فوزية محمد نوح
أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة للوصول إلى مجموعة من الأهداف ومن أهمها:

- ١- التعرف على دور التعليم في نهضة الدول الإسلامية بصفة عامة وبلاد المغرب بصفة خاصة.
- ٢- الوصول إلى العلاقة الحميمة بين التعليم في كل من بلاد المغرب والأندلس وتأثيره في مختلف نواحي الحياة خلال تلك العصور.
- ٣- إبراز أن نظام التعليم في بلاد المغرب في العصر الوسيط لها أصول وتأثيرات في نظم التعليم في بلاد الأندلس.
- ٤- التأكيد على أن نظم التعليم في بلاد المغرب والأندلس في العصر الوسيط لم تكن مجرد رصيد معرفي يلقن للمتعلم وإنما كان عبارة عن اتجاه وفلسفة وسياسية.

أهمية هذه الدراسة:

تكتسب هذه الدراسة أهمية للنقاط الآتية:

- ١- أن التعليم في العصر الحاضر في بلاد المغرب مرتبط بجذور التعليم في العصر الوسيط يتأثر سلباً وإيجاباً وبالتالي لابد من علاج أوجه القصور لتلافيها وتدعيم نقاط القوة.
- ٢- تأكيد أهمية دور وسائل التعليم ومؤسساته في بلاد المغرب في العصر الحديث في النهوض والرقى بالمجتمع في جميع مجالات ونواحي الحياة.
- ٣- إن الحكام وولاة الأمور عندما يدعمون مؤسسات التعليم فإنهم يساهمون في تدعيم بنیان مجتمعهم علمياً وخلقياً واجتماعياً وثقافياً.
- ٤- أن الحضارة الإسلامية هي حضارة خالدة عبر العصور وأن الدين الإسلامي صالح لكل زمان ومكان ولن يشاده أحد إلا غلبه.

خطة البحث

وقد قسمت البحث إلى مقدمة و مبحثين وخاتمة.

المبحث الأول: أصول نظم التعليم في بلاد المغرب

المبحث الثاني: نظم التعليم في بلاد المغرب وتأثيراتها الأندلسية

ثم ختمت البحث بخاتمة توضح رؤية الباحثة لجوانب نظم التعليم في بلاد المغرب سابقاً وحالياً، ورؤية مستقبلية لكيفية إصلاح نظم التعليم في بلاد المغرب من أجل مستقبل أفضل لأجيالنا القادمة.

والله نسأله التوفيق والسداد



أصول نظم التعليم في بلاد المغرب

نظم التعليم في بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية

أولاً: نظم التعليم في بلاد المغرب بين الرحلة العلمية والمدرسة النظامية:

في هذا الجزء سنحاول أن نرسم صورة لأشكال النظام التعليمي خلال العصر الوسيط من خلال الرحلة العلمية والمدرسة النظامية، فلقد اكتسبت الرحلة العلمية أهمية فائقة ولم يكن المجتمع يثق في العالم الذي اكتسب علمه دون رحلة، وتعود أهمية الرحلة في وظيفتها التربوية وما وفرته للطالب من إمكانيات وقدرات، حيث كثرت لقاءات المشايخ وتعدد الوجهات سواء داخل المدن والأندلسية، أو في اتجاه المشرق دون تعصب للمذهب المالكي رغم تمسكهم الشديد به، هذا وقد شملت الرحلة العلمية كذلك العبيد والموالي المغاربة والأندلسيين وقد كان من محصلة الرحلة العلمية بروز مراكز استقطاب ارتبطت شهرتها بالنشاط التعليمي، لكونها شكلت قلة للعلماء والمدرسين والطلبة مثل: قرطبة وإشبيلية وسبتة ومراكش وفاس.

ورغم الدور الأساسي الذي لعبته الرحلة العلمية في تطوير التعليم بالمغرب والأندلس إلا أن أهميتها تراجعت لفائدة التعليم النظامي الذي رسخته المدارس بعد ذلك حيث انتقل "التعليم المدرسي" بموجب ذلك من رصيد معرفي إلى فلسفة واتجاه معينين، وأصبحت المدرسة تتحكم في "سوسيولوجيا المتعلم" من حيث علاقته بالمجتمع والدولة.^(١)

حال التعليم في بلاد المغرب:

تعتبر الكتابات والزوايا والمساجد من أهم المؤسسات التي اضطلعت بدور التعليم في العصر الوسيط، فقد دأب أهل المغرب الأوسط منذ الفتح الإسلامي على تعليم أولادهم في هذه المؤسسات الدينية.

كان تعليم الفتیان في مراحلہ الأولى في الحواضر يتم^(٢) في زاوية المسجد. أو أمام المحراب^(٣)، لكن بعد الضيق الذي عرفته المساجد، وكذلك لنهي الفقهاء على تعليم الصبيان في المساجد تجنباً للنجاسة^(٤). انفصل في أماكن مستقلة^(٥) تسمى الكتابات. وإذا كانت المؤسسات التعليمية في المدن تحظى بالقدر الكبير من الاهتمام. والرعاية، وكثرة الأوقاف

(١) سعيد بنحمادة، النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، ١٢٤، منشورات الأمن، المغرب، ٢٠١١م، ص ١٢٣

(٢) "الكتاب موضع تعليم القرآن، وفي الأساس تطلق على الصبيان لا المكان"، (مجد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج ٣٧، تحقيق مصطفى حجازي، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ٢٠٠١م، ص ١٠٤.

(٣) بشير رمضان التليسي، "الاتجاهات الثقافية في الغرب الإسلامي"، دار المدار الإسلامي، بنغازي، ليبيا، ٢٠٠٣، ص ٣٦٦.

(٤) الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى ت ٩١هـ / ١٥١١م)، "المعيار والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب"، ج ٧، تحقيق: مجد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م، ص ٣٦٦.

د/ فوزية محمد نوح

عليها؛ فإنها لم تتل نفس الحظ في البوادي، بل وصل الأمر في عدد من القرى إلى امتناع بعضهم من إقامة الجماعة، وبناء المسجد وأخذ المؤدب لقراءة أولادهم^(٦).

كان تعليم الفتيان في البادية يتم في مكان واحد هو الجامع^(٧)، بغض النظر عن مساحته، فأغلب المساجد في البادية كانت بسيطة وصغيرة قدر كفاية سكانها، تخصص جهة بداخله أو بجانبه لتعليم الصبيان، وكان الأثاث الموجودة فيه بسيطاً عبارة عن حصير مصنوع من الحلفاء، أو الدوم، وألواح خشبية، وأقلام من القصب، وقطع من الصلصال، ودواة من الصمغ والصوف، وجرار للماء، وبعض الأواني البسيطة^(٨)؛ كما تجدر الإشارة إلى وجود "خيمة مدرسية عند البدو" كانت تستعمل لتعليم الصبيان وفي نفس الوقت فهو مصلى كبير تقام فيه الصلوات^(٩).

كما تم إسناد التعليم في المرحلة الأولى (أي الابتدائية) إلى معلم القرآن. ويسمى أيضاً بالمؤدب^(١٠)، ولكن لم يكن سهلاً على أهل البادية إيجاد معلم لأبنائهم، فالمعلمون كانوا يفضلون المدن والحوضر، بسبب ارتفاع الأجرة فيها عن البادية؛ ومعظم الذين كانوا يقدمون على التعليم في البادية كانوا ممن يتعففون ويرضون بالقليل محتسبين ذلك لوجه الله^(١١)؛ ومهما يكن من أمر فإن معلم الصبيان في الكتاب لم يكن يضمن للمعلم عيشة راضية، فقد وصفها البعض بأنها حرفة محتقرة^(١٢)، كما كان المعلم يقوم بوظائف أخرى حيث كان أهل القرية يتعاقدون مع معلم لتعليم أبنائهم، وفي نفس الوقت يقوم بالإمامة والأذان^(١٣).

ثانياً: المؤسسات والأماكن التعليمية:

- (٦) الونشريسي، المعيار، ج ١، ص ١٣٩.
- (٧) علي عشي، "المغرب الأوسط في العهد الموحد"، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، ٢٠١٢، ص ١٠٥.
- (٨) قاسمي بختاوي؛ التعليم بالكتاب بالمغرب الأوسط أيام حكم بني عبد الواد، دورية كان التاريخية، العدد الثاني عشر، جويلية ٢٠١١، ص ٣٤٠٣١.
- (٩) عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط ٢، القاهرة، مصر، ص ٢٥٣.
- (١٠) الونشريسي، "المعيار"، ج ١، ص ١٣٩.
- (١١) الونشريسي، "المعيار"، ج ٨، ص ٢٥.
- (١٢) بشير رمضان التليسي، المرجع السابق، ص ٣٧٢.
- (١٣) أبي زكريا يحيى بن موسى المازوني التلمساني، "الدرر المكنونة في توازل مازونة"، مخطوط، تحت رقم ٨٢٧، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، ورقة ٢٤٠ و.

وضع النبي في مسجده مكاناً للتعليم والتعبد^(١٤). وكانت الكتاتيب من البنايات البسيطة المضافة إلى المسجد، أو تكون في بيت المعلم نفسه، أو في حانوت يستأجره المعلم، أو سطح دار^(١٥). وبالمغرب العربي بدأت هذه المرحلة بعد اكتمال عمليات الفتح العسكري وبناء المساجد وانتشار الإسلام بنحو ثابت، لذلك أخذت الناس تتجه إلى تعليم أبنائهم علوم القرآن التي لم يعرفوها، وكان الفضل للعلماء الذين واكبوا الحملات العسكرية^(١٦).

وانتشرت الكتاتيب في بلدان المغرب العربي في جميع مدنه الكبرى، مثل: مراكش وسبتة وفاس والقيروان، وهي بجوار المساجد وقد حرص المرابطون، والموحدون والمرينيون، والحفصيون على نشر علوم القرآن في الكتاتيب من حيث تعليم الصغار هذه العلوم وتأكيدا^(١٧).

اهتم المرابطون والموحدون بمساعدة الأيتام على الحصول على التعليم بالكتاتيب حتى أن بعض المحسنين كانوا يقدمون المساعدة للأيتام وأبناء الفقراء بدفع أجور تعليمهم، وشجع هذا الأمر على نشر التعليم في المغرب بدرجة كبيرة، مما رفع المستوى العلمي في المغرب، لأن مذهب مالك لا يجيز إدخال تعليم الصبيان داخل المسجد، وذلك للمحافظة على طهارة المسجد^(١٨).

وهناك نوع من المعلمين يسمى (المربي) وهذا كان يتخذه الأمراء والحكام لتربية الأبناء وتعليمهم، وكان هناك مربيون، يعلمون فنون القتال والفروسية حتى يكون مهياً لإدارة شؤون البلاد^(١٩).

وقد تطورت الكتاتيب أيام الحفصيين والمرينيين، حيث أخذت أماكن معروفة، وأخذت تدرس علوم اللغة والنحو والفقهاء والشعر وأيام الملوك السابقين^(٢٠). وكانت (الفلقة)

(١٤) ابن سحنون محمد (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م): آداب المعلمين، منشور ضمن كتاب الفكر التربوي عند ابن سحنون والفاسي، إشراف عبد الأمير شمس الدين، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٥.

(١٥) أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٦٤.

(١٦) ابن سحنون: آداب المعلمين، ص ٥٦.

(١٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٦، ص ٢٠٩.

(١٨) يوسف بن يحيى بن عيسى التادلي ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق: أولدف فورة، مطبوعات إفريقية الشمالية، الفنية، الرباط، ١٩٥٨م، ص ٤٥٩.

(١٩) ابن سحنون: مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢٠) ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٢١١.

د/ فوزية محمد نوح

مشهورة في عقاب الصبيان عند الكتاب، وهي من أشد العقوبات^(٢١). وقد خصص المرابطون والموحدون أماكن لنوم الصبيان، وكذلك إعطائهم أجور تساعد على الدراسة، لأنها كانت تعتمد على سياسة تربية الجيل لأجل إعداده مستقبلاً لإدارة شئون البلاد في المناصب الإدارية والسياسية^(٢٢).

٢- المسجد:

كان المسجد في بلاد المغرب بنحو عام له قدسية منزلة كبيرة عند أهل المغرب فالمسجد لم يكن مخصصاً للصلاة فقط، بل كان يمثل مركز الحياة في العصور الوسطى منذ ظهور الإسلام، وأهم مهمة اضطلعت بها الجوامع بعد الصلاة هي العملية التعليمية التي كان يصدرها العالم أو الفقيه.

وكل من كان يسكن الجامع كان موضع احترام، وبعد أن أبعد المغريون الأطفال من الدراسة في المسجد؛ احتراماً للمسجد، وللمحافظة على نظافته وطهارته، فقد كان العمر الذي يلتحق الطالب به للدراسة في المسجد بحدود (١٢ - ١٦ سنة) وربما أكبر أو أقل، وهي تشبه المرحلة المتوسطة في الوقت الحاضر^(٢٣).

أما نظام الدراسة وكيفيته؛ فهي على شكل حلقات دراسية، فكان الأستاذ يجلس في زاوية من زوايا المسجد، أو يتكى على إحدى أسطواناته، أو على كرسى^(٢٤). وشهدت مراكز في عهد المرابطين اهتماماً بالغاً بالمساجد، ومن أشهرها مسجد يوسف بن تاشفين، ومسجد صومعة الطور، ومسجد على بن يوسف بن تاشفين، قد قورن بالجامع الأزهر وجامع القرويين^(٢٥).

٣- المدارس:

انتشرت المدارس في البلدان الإسلامية بعد بناء المدرسة النظامية في بغداد (٤٥٧ هـ)، وقد تضافرت عدة أسباب لظهور المدارس، وهي صعوبة التوفيق بين وظائف

(٢١) أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف: محمد محيي، دار الإسلام، بيروت، ج ٢، ص ٢٤٣ - ٢٥٦.

(٢٢) روبرت برنشيبيك: تاريخ دولة إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ - ١٥ الميلادي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤ م، ج ٢، ص ٣٧٤ - ٣٧٥.

(٢٣) حسين كريم عجيل: الحياة العلمية في مدينة بلنسية، مؤسسة الرسالة، ط ٥، بيروت، ١٩٧٦، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢٤) ابن خلدون: المقدمة، دار العودة، بيروت، ١٩٨١، ص ٤٦٣.

(٢٥) ابن الأبار محمد بن عبد الله القضاة: المعجم في أصحاب القاضى الإمام أبى على الصرفي، دار الكتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٥٧.

نظم التعليم في بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية

المسجد المتعددة والتطور الذي واكب الحركة العلمية على مر السنوات في المغرب العربي الإسلامي، وكذلك ظهور علوم جديدة أخذت تدرس في المسجد.

أما المدارس في المغرب العربي؛ فقد ذكرت المصادر أن المدارس بدأت بزمن المرابطين، حيث بنى يوسف بن تاشفين مدرسة (مدرسة الصابرين) في مدينة فاس التي عرفت فيما بعد بمدرسة (بومدين)، وكذلك مدرسة مدينة مراكش التي عنى بها الحكام المرابطين، أما في مجال الموحدين؛ فقد قام عبد المؤمن بن علي باستدعاء الصبيان من المدن المغربية والأندلس، وإقامتهم عنده لمدة ستة أشهر لتدريسهم العلوم المختلفة^(٢٦).

ومن المدارس المذكورة هي (المدرسة الشمالية) التي بناها في تونس أبو زكريا الحفصي^(٢٧)، ومدرسة (مدرسة التوفيق) التي بنتها الأميرة عطف، ومن المدارس مدرسة ابن تافراحين وهو من الموحدين، مدرسة الحفاويين، ومدرسة فاس الجديدة، ومدرسة العطارين، ومدرسة الصهريج، والمدرسة المصباحية، ومدرسة الوادي^(٢٨).

من خلال عدد من النوازل الواقعة بالمغرب الأوسط تبين أن الاهتمام بالمؤسسات التعليمية أو دور العلم تعددت دوائره سواء من طرف العلماء أو من طرف الحكام والأمراء أو من طرف عائلات عموم الشعب، فكانت المساجد في المرتبة الأولى في قائمة الأهمية، وهي التي كانت تحتضن مجالس العلماء.

وقد أورد العلامة العارف أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني المتوفى سنة (٨٥٤/٤٥٠م)^(٢٩) على أن أهل قرية "تضامن الجماعة في بناء المسجد واتخاذ الإمام والمؤدب". ملزماً الجميع بالمشاركة في ذلك حتى لا تتعطل إقامة الجماعة^(٣٠). وجاءت المدارس في المرتبة الثانية من حيث الانتشار، فقد ذكر الونشريسي نازلة ببلدة كبيرة في تلمسان يجرى بها ماء من الأعلى إلى الأسفل وبهذا البلد "حمامات ومدارس ودور"^(٣١).

^(٢٦) أبو علي بن محمد بن عبد الملك ابن القطان: نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود على مكي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإسلامية، تطوان ديت، ص ١٤٠.

^(٢٧) أبو عبد الله بن أحمد الشماخ: الأدلة البيئية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر محمد المعموري، نشر الدار العربية للكتاب، بيروت ١٩٨٤م، ص ٥٦.

^(٢٨) محمد التلمساني ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق: الدكتورة مارييا حيسوس بيفرا، مطبعة أحمد زبانه، الجزائر، ١٩٨١م، ص ٤٠٥.

^(٢٩) قاسم بن سعيد العقباني التلمساني أبو الفضل: وصفه ابن مريم "بشيخ الإسلام ومفتي الأنام، الحافظ القدوة العلامة المجتهد العارف، ولي خطة القضاء في تلمسان وأحرز في العلوم قصب السبق وحازه". وذكره المازوني في نوازله، وجعله في وفياته، من وفيات سنة (٨٥٤هـ/٤٥٠م).

^(٣٠) الونشريسي، المعيار، ج ١، ص ١٣٩.

^(٣١) نفسه، ج ٥، ص ٣٣٤.

د/ فوزية محمد نوح

كل هذه النوازل تؤكد كثرة المدارس في المغرب الأوسط خاصة في تلمسان، وإذا أردنا معرفة المزيد فإن عبد الرحمن بن خلدون يخبرنا في كتابه العبر أن بعض حكام تلمسان كانوا يبنون المدارس كما فعل أبو حمو موسى الثاني^(٣٢) الذي بنى مدرسة خاصة للعالمين الجليلين الشهيرين بابني الإمام^(٣٣)، وقد جعل أخوه أبو زكريا يحيى بن خلدون وهو يعرف بتلمسان أن من مباحها كثرة المدارس وذلك في قوله: "... وتتصب إليها من أعلى أنهار من ماء غير آسن تتجاذبه أيدي المذانب والأسراب المكفورة خلالها، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات، فالقصور وعليه الدور والحمامات^(٣٤)."

أما المؤسسة الثالثة التي أوردتها الونشريسي في نوازلها المجموعة هي الزوايا التي يرتادها المتصوفة، وهي ظاهرة ارتبط انتشارها - كما يشير المؤرخ المغربي إبراهيم القادري بوتشيش - بالمرحلة الأخيرة من العصر المرابطي، وذلك لعدة أسباب ليس هذا مكان حصرها^(٣٥).

(٣٢) أبو حمو موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن تولى عدة مرات بين (٧٦٠-٧٨٩هـ/ ١٣٥٩-١٣٨٧م)، أبو حمو موسى الزياني - حياته وأثاره - الجزائر؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.
(٣٣) ابني الإمام هما الأخوين أبو موسى عيسى، وأبو زيد عبد الرحمن، ابني محمد بن عبد الله بن الإمام التلمساني؛ ذكرهما ابن فرحون بأتهما: "فاضلا المغرب في وقتها وكانا خصيصين بالسلطان أبي الحسن المريني... لهما التصانيف المفيدة والعلوم النفيسة"، وأشاد بهما التتبيكتي وابن مريم والمقرئ التلمساني وعبد الرحمن بن خلدون في تاريخه، والونشريسي في معياره وفي وفياته، توفي أبو موسى سنة ٧٥٠ هـ، بينما توفي أخوه قبله في سنة ٧٤٣ هـ.
(٣٤) يحيى بن خلدون نفسه، ص ٨٦، وفي السياق نفسه يذكر لنا المقرئ التلمساني في النسخ أنه رأى أبيات شعر هي من بدائع الدنيا، مكتوبة على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الزياني، (قد يكون الثاني الذي حكم بين ٧٩١-٧٦٥هـ/ ١٣٨٩-١٣٩٣م) (المقرئ التلمساني مصدر سابق، ج ٨، ص ١٨٢).
(٣٥) إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين - المجتمع، الذهنيات، الأولياء - تطوان؛ منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، ٢٠٠٤، ط ٢، ص ١٢٥، وفي السياق نفسه يشير محمد فتحة في كتابه القيم عن النوازل "أن الموحدون أيضاً لم يقفوا موقفاً معادياً من تيار التصوف بل العكس، في عهدهم ظهر أقطاب التصوف المغربي واتسع نطاقه ليشمل البوادي والمناطق النائية (محمد فتحة النوازل الفقهية والمجتمع - أبحاث في تاريخ المغرب الإسلامي من القرن ٦ إلى ٩هـ/ ١٢-١٥م - الدار البيضاء منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٩، ص ١٦٠).

نظم التعليم في بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية

المبحث الثاني

نظم التعليم في بلاد المغرب وتأثيراتها الأندلسية

أولاً: اهتمام حكام المغرب والأندلس ببناء المدارس:

١- بناء المدارس في الأندلس

لم يشهد العالم الإسلامي انتشاراً واسعاً للمدارس مع تنوعها وتطورها بمثل ما شهده في بلاد المغرب العربي والأندلس، فقد كانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد، بيد أنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التعليم، ولذلك أضاف الخليفة الأموي الحكم الثاني (ت ٣٦٦هـ) إليها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجان، وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء، وكان التعليم العالي يقوم به أساتذة مستقلون يلقون محاضراتهم في هذه المدارس، وقد كونت المناهج التي كانت تدرس العمود الفقري لجامعة قرطبة في عهد الخلافة الأموية في الأندلس، كما أنشئت الكليات في كل من غرناطة وطليطلة وإشبيلية ومرسية وألمرية وبلنسية وقادس^(٣٦).

٢- بناء المدارس في بلاد المغرب:

وقد اهتم أمراء وسلاطين المغرب ببناء المدارس، فقد خرجت المدارس التي بناها المرابطون في المدن والبوادي وخاصة في منطقة سوس مجموعة من العلماء النابيين في تخصصات عدة رفعتهم إلى مصاف رجال الفكر في العالم الإسلامي. وقد بلغت مدارس سوس نحو أربعمئة مدرسة، تحدث محمد المختار السوسي في كتابه "سوس العالمة" عن خمسين مدرسة منها، وفي "مدارس سوس العتيقة" عن مائة مدرسة منها^(٣٧).

وكانت القبائل هي التي تمول هذه المدارس عن طريق تخصيص بعض أعشار محصولاتها الزراعية لها، وتحبب بعض الأملاك من أجل الصيانة والتمويل وتحمل تكاليف المدرسة، وكانت القبائل السوسية تتنافس في بناء المدارس بالجبال والسهول، وكانت لكل قبيلة مدرسة أو مدرستان أو ثلاث مدارس، ومن أبرز المدارس التي شيّدت في عصر المرابطين - إضافة إلى ما سبق - نذكر "مدارس سبتة"، وقد كانت هناك عدة مدارس أخرى بطنجة، وأغمات، وسجلماسة، وتلمسان، ومراكش. وكانت هذه المدارس تأوى علم القيروان

^(٣٦) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٣٠٦.

^(٣٧) المختار السوسي: هو محمد المختار بن علي بن أحمد الإلغي السوسي (١٣١٨-١٣٨٣خ/ ١٩٠٠-١٩٦٣م) مؤرخ، فقيه، أديب، يقول الشعر، ويُعرف بوزير التاج، من كتبه كتاب "المعسول في تاريخ سوس". انظر: الزركلي: الأعلام ٧/ ٩٣.

د/ فوزية محمد نوح

وثقافة الأندلس المشهورة، حيث نبغ فيها أعلام كبار، منهم القاضى عياض^(٣٨)، وأبو الوليد بن رشد^(٣٩) مؤلف كتاب المقدمات الأوائل للمدونة، والبيان والتحصيل، إلى آخر كتبه القيمة^(٤٠)."

والذى يجب أن ننبه عليه أن الطلبة فى هذه المدارس - فى المشرق والمغرب- كانوا يكفون المؤنة، من الطعام والشراب والأموال والسكنى، ولذلك عرفت الحضارة الإسلامية نظام المدن الجامعية قبل الغرب بمئات السنين؛ ففى عام ٧٢١هـ أمر سلطان الدولة المرينية فى المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب (ت ٧٣١هـ) ببناء "المدرسة التى بفاس الجديدة، فبنيت أقتن بناء وأحسنه، ورتب فيها الطلبة لقرأة القرآن، والفقهاء لتدريس العلم، وأجرى عليهم المرتبات والمؤن فى كل شهر، وحبس (أوقف) عليها الرباع والضياح؛ ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده^(٤١)."

وقد كان السلطان أبو سعيد من أشهر سلاطين المرينيين الذين اهتموا ببناء المدارس، ففى عام ٧٢٣هـ "فى فاتح شعبان منها، أمر السلطان أبو سعيد ببناء المدرسة العظمى بإزاء جامع القرويين بفاس وهى المعروفة اليوم بمدرسة العطارين، فبنيت على يد الشيخ أبى محمد عبد الله بن قاسم المزوار، وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه فى جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست، وشرع فى بنائها بمحضره، فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبين ملك قبله مثلها، وأجرى بها ماء معيناً من بعض العيون هناك، وشحنها بالطلبة، ورتب فيها إماماً ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها، ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم، وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية، واشترى عدة أملاك ووقفها عليها احتساباً لله تعالى^(٤٢)."

ثانياً: مهنة المعلم فى بلاد المغرب

بعد الانتشار الكبير للعلم كان من الضروري إسناد هذه العملية لمن هم أهلاً لها، فظهرت مهنة المعلم، ولما كانت هذه المهمة تتطلب من صاحبها التفرغ لها، كان يستوجب

^(٣٨) القاضى عياض: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٤٧٦- ٥٤٤هـ/ ١٠٨٣- ١١٤٩م)، كان إمام وقته فى الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. ولى قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفى بمراكش. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٤٨٣، ٤٨٥.

^(٣٩) ابن رشد: هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (٥٢٠- ٥٩٥هـ/ ١١٢٦- ١١٩٨م) العلامة الفيلسوف، والمعروف بابن رشد الحفيد. ولد بقرطبة، وتوفى بمراكش. انظر: الذهبى: سير الأعلام ٢١/ ٣٠٧- ٣٠٩، وابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٣٦٧.

^(٤٠) الحسن السائح: الحضارة المغربية ٢/ ٦٤.

^(٤١) أبو العباس الناصرى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٣/ ١١١، ١١٢.

^(٤٢) المصدر السابق ٣/ ١١٢.

نظم التعليم في بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية

تأجير من يقوم بها، فظهرت معها مسائل يسأل فيها الناس عن أجره من يمتحن التعليم، وفي هذا الصدد أفتى السعيد العقباني^(٤٣) بجواز إجازة المعلم كي لا يشغلهم طلب المعيشة عن التعليم؛ وفي ذات النازلة أفتى بعدم طلب المعلم الإذن من شيخه فالتعليم لا يحتاج إلى إجازة^(٤٤).

ومن المظاهر التي كانت موجودة خلال الفترة المدروسة اجتياح الغصاب والعرب على كثير من المناطق، وكانوا يهتمون بتعليمهم أبنائهم، في هذا الصدد أجاز الفقهاء حسب ما جاء في الدرر عن تعليم القرآن لأولاد الغصاب، وأشياخ الرعايا بأجرة، فأباح الفقهاء أخذ الأجرة منهم مقابل تعليم صبيانهم^(٤٥).

كان أهل القرية إذا ما وجدوا معلماً لأبنائهم يتفقون معه حسب العرف السائد عندهم، من بين الشروط التي يتضمنها العقد هو مقدار الأجرة، وهل تكون سنوية أم شهرية، إلى جانب الفترة الزمنية وعدد الأولاد^(٤٦). فبالنسبة للأجرة لم تكن شبيهة بتلك الموجودة في المدينة، حيث كانت أجرة المعلم في الحواضر بالنقود بينما كانت تختلف عنها في البوادي؛ إذ كان أهل القرى والبوادي يتفقون مع المعلم على مقدار مما ينتجون من غلات زراعية، أو حيوانية.

وما دام تعليم الأبناء له أعباء ولم يكن باستطاعة الآباء الالتزام بدفع نفقة المعلم، فقد سعى بعضهم إلى البحث عن حلول كالتطوع لحرث الأرض المحبسة على المسجد ويعصرون زيتونها وكرومها ويمدون الإمام بمنهجها في موسم الجنى. غير أن هناك من كان الفقر والعوز عائقاً أمامهم فوجهوا أبناءهم للحرفة أو الصنعة عوض التحصيل العلمي بسبب الحاجة والخاصة^(٤٧).

ثالثاً: دور الآباء التعليمي وعلاقتهم بالمعلم

لقد أشار ابن خلدون إلى أهمية تعليم الصبيان القرآن في الصغر بقوله: "... وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبى عليه ما يحصل بعد من الملكات، وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده..."، وقد جعل الفقهاء أجر الآباء في تعليم أبنائهم

^(٤٣) سعيد بن محمد بن محمد العقباني الإمام الفقيه التلمساني تولى القضاء لمدة أربعين سنة، قاضي الجماعة في بجاية، وتلمسان وسلا ومراكش، توفي سنة ٨١١ هـ، انظر: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩، ص ١٨٩.

^(٤٤) الونشريسي، المعيار، ج ٨، ص ٢٣٦.

^(٤٥) المازوني، المصدر السابق، ورقة ٢٤٢ ظ.

^(٤٦) الونشريسي، المعيار، ج ٨، ص ٢٤٠.

^(٤٧) عبد المالك بكاي، "أسرة الريفية في المغرب الأوسط من القرن ٧-١٠ هـ/ ١٣-١٦ م"، مجلة العلوم الاجتماعية العدد ١٧، سبتمبر ٢٠١٣ م.

د/ فوزية محمد نوح

القرآن أعظم من الحج والرياط والجهاد^(٤٨)، وكان من المعلوم عند أهل المغرب الأوسط أن تعليم الصبيان يقع على عاتق الآباء، واهتماماً منهم حرص الآباء في بلاد المغرب على تعليم أبنائهم، على الرغم من الصعاب التي اعترضتهم مثل عدم قدرتهم على الإنفاق وصعوبة إيجاد معلم. فكانوا يجتهدون في البحث عن معلم القرآن ويتعاقدون معه ومن بين ما كان يتضمنه العقد المدة، والأجرة، وعدد الصبيان، وأحياناً كان المعلم لا يحدد العدد وإذا زاد عن الحد الذي لا يقدر عليه، استعان بمن يعينه غير أن هذه الظاهرة كانت قليلة الوقوع في البادية لمحدودية الأطفال عكس المدينة.

ولكن لم يكن باستطاعة أهل بعض قرى البوادي تخصيص معلم لأبنائهم^(٤٩)، إما لعدم وجود مكان أو لعدم قدرتهم على أجرته، وأحياناً لقلة عددهم، ما يجعلهم يأخذون أبناءهم إلى القرى المجاورة التي يكون بها معلم.

على الرغم من الأعراف التي كانت تنظم العلاقة بين أولياء الأولاد والمعلم، وكذلك العقد الذي كان يبرم بينهم في البداية إلا أنه كان تظهر خلافات بين الطرفين، ومنها على سبيل المثال كان بعض الأولياء يرتحلون قبل انقضاء المدة المتفق عليها فيطلب المعلم أجرته كاملة، وخلاف آخر كان كثير الوقوع وهو وصول الطفل في الحفظ إلى الحذقة، حيث يسكت عنها الطرفين ثم يطلبها المعلم، فيأبى الآباء بحجة أنها لم تكن من ضمن الشروط.^(٥٠)

رابعاً: ظاهرة خميس الطالب

من أهم مظاهر التي تجلب الانتباه إليها في التعليم في بلاد المغرب. ظاهرة "خميس الطالب". وهذه الظاهرة كانت منتشرة بشكل واسع في معظم بوادي وقرى المغرب الأوسط. ولا نجازف إن قلنا أنها كانت من مميزات التعليم القرآني التي اشتهر بها أهل البادية أكثر من أهل الحواضر، وظلوا يمارسونها حتى تحولت إلى عرف لا يمكن الإقلاع عنه، بقيت هذه الظاهرة كما هي.

فالخميس هنا المقصود به يوم الخميس، والطالب يقصد به معلم القرآن إذ درج أهل البوادي على تسمية معلم القرآن عندهم بالطالب، فقد كانت جميع أسر أهل القرية، أو المنطقة الواحدة، يخصصوا نصيباً معلوماً مما ينتجون يعطونه للمعلم القرآن يوم كل خميس؟

^(٤٨) الونشريسي، المعيار، ج ٨، ص ٢٥٠.

^(٤٩) الونشريسي المعيار، ج ١، ص ١٣٩.

^(٥٠) عبد المالك بكاي، مرجع سابق، ص ٦٦.

نظم التعليم في بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية

سواء ممن له ولد يقرأ أو ممن ليس له ولد، وكان يختلف نوعه ومقداره من قرية إلى أخرى. وقد أفادنا بهذه الظاهرة المازونية في إحدى نوازله، ونظراً لأهميتها نذكرها كاملة؛ فقد سئل أبو الفضل العقباني^(٥١) عما يأخذه المعلم من الزيد في البادية في فصل الربيع يجعلون له مخضة زيد عن كل من بيوت الحلة، على من عنده الولد وعن من لا ولد له يسمونه خميس الطالب^(٥٢) هل يسوغ له ذلك أم لا؟ فكان جوابه ما يأخذه المعلم ممن لا ولد له من الزيد سايب له إن قصد المعطى التبرك.

فمن خلال النازلة يمكن أن نستخلص من هذه الظاهرة:

- تخصيص يوم يعطى فيه (خميس الطالب) وفي الغالب كان يوم الخميس.
- تعطى من غالب ما ينتج أهل البلد أو القرية الواحدة.
- قد يتغير هذا الجعل من فصل إلى آخر أى بحسب المنتج الغالب في كل موسم.
- يشارك فيها جميع أهل البلدة بما فيهم من ليس له ولد يقرأ.

خامساً: الألقاب العلمية في بلاد المغرب والأندلس:

الإمام: هو الشخص الذي يقتدى به أما في الدولة الإسلامية، فالإمام منصب رفيع إذ كان الإمام هو الذي يؤم الناس في الصلاة، أصبح لقب الإمام في المجال العلمي هو العالم المتميز بعلمه وله شهرة واسعة ومن الأئمة المشهورين في المغرب القاضي عياض فكان إماماً في الفقه والحديث، وأبو عمر وعثمان بن عبد الله السلاجي وعبد الله بن أبي الربيع^(٥٣).

الشيخ: وهو لقب يطلق على العالم الغزير بعلمه في إمكانيته العلمية وإمكانيته في العلم والفضيلة والمقام، محمد بن عبد الله الموروري يلقب بالشيخ المقرئ وأحمد بن علي بن محمد السماتي شيخ العلم^(٥٤).

المدرس: وهو الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من الفقه والحديث والتفسير، ومن المدرسين البارزين محمد بن عمر بن قطري الزبيدي مدرساً للنحو والعربية في سبتة وأشهر المدرسين كذلك ابن عرفة^(٥٥).

(٥١) أبو الفضل قاسم بن سعيد بن محمد العقباني، إمام ومفتى تلمساني تولى قضاء تلمسان في صغره ومارس التدريس توفي سنة ٨٥٤هـ، ودفن بجوار قبر الشيخ ابن مرزقن، أحمد بابا التنبكتين المصدر السابق، ص ٣٦٥

(٥٢) عبد الملك بكاي، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٥٣) ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، ص ١٧٨.

(٥٤) القاضي عياض: الغنية، ص ١٤٧.

(٥٥) أبو العباس شهاب التلمساني المقرئ: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا، القاهرة، د.ت. ج ٣، ص ٣٦.

د/ فوزية محمد نوح

العالم والعلامة: ومعناه المبالغة في وصف العالم بما لديه من علم غزير، وأشهر العلامات هو موسى بن سليمان اللخمي عالماً بالقراءات وعباض عالماً بالحديث والإدرسي عالماً في الجغرافية^(٥٦).

الأستاذ: وهو لقب خاص كان يطلق على المعلمين الذين كانوا متميزين جداً في مجال التعليم^(٥٧).

المعلمون والمؤدبون: المعلمون لقب أطلق على الأشخاص الذين يعلمون الصبيان في المرحلة الأولى، وكذلك المؤدب يطلق على معلم أولاد السلاطين والأمراء حيث يجب أن يكون المؤدب متميزاً لديه إطلاع في مختلف العلوم^(٥٨).

ومن أشهر المعلمين في دولة المغرب هم:

١- الأمير القاضي العلامة أسد بن الفرات بن سنان (ت ٢١٣هـ)

٢- القارئ المشهور حسنون المعروف بابن زبيبة الدباغ (أواسط المائة الثالثة)

٣- الداعية الشيعي الفاطمي أبو عبد الله الصنعاني (٢٩٨)

سادساً: طرق التعليم في الكتاتيب والمساجد والمدارس

هناك عدة طريق للتعليم من أبرزها:

السماع: ونعني به أن يسمع الطالب فيه من لفظ شيخه ويقول السامع عادة حدثنا وأخبرنا وأنبأنا وسمعت فلان، وكذلك بعض الطلاب لا يكتفى بالسماع من شيخ واحد بل يسمع من عدة شيوخ في العلم نفسه، ومنهم محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجي^(٥٩).

طريقة الحفظ والاستظهار: وهي تعتمد على ذاكرة الطالب مما دفع الطالب إلى التركيز في ذاكرته لقلّة الموارد التي تساعد على حفظ الدرس وتقوية الذاكرة عنده^(٦٠).

وقد ذكر ابن خلدون في المقدمة أن أهل المغرب يبالغون في الحفظ والتقيد فيه إلى درجة منعتهم من النقد والتحليل، وهي طريقة عبر عنها مضمومة إذا بالغوا فيها^(٦١).

^(٥٦) عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ط ١، المطبعة الجديدة، فاس ١٩٣٧م، ص ١١٥-١١٦.

^(٥٧) إبراهيم علي العكش، التربية والتعليم في الأندلس، ط ١، دار الفيحاء، عمان ١٩٨٦م، ص ١٣.

^(٥٨) خليل طوطوح: التربية عند العرب، المطبعة التجارية، القدس، د.ت، ص ٤٨.

^(٥٩) القاضي عياض، الألباع إلى معرفة أصول الرواية والسماع، تحقيق: السيد أحمد الصقر، ط ١، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٠م، ص ٦٩.

^(٦٠) ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٧٩.

^(٦١) ابن خلدون: مرجع سابق، ص ٣٤٦.

نظم التعليم في بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية

القراءة والإقراء: حيث يقوم المدرس بشرح كل الفقرات التي يملئها على الطالب أو تكتب هذه الشروح على هامش كل ورقة^(٦٢)، وقد شاعت هذه الطريقة في التعليم في المسجد والمدارس، وقد كان لقب المقرئ واضحاً في المدارس والمساجد^(٦٣).

ظاهرة تزويق الألواح: من الظواهر التي تستدعي أن نتوقف عندها، ظاهرة تزويق لوحة حفظ القرآن خلال المناسبات، وعند الحذقة وهذه الظاهرة عرفت انتشاراً واسعاً ولم تتوقف بل ظل وجودها إلى السنين الأخيرة من زماننا هذا؛ قبل الحديث عن هذه العادة الحميدة علينا أن نتوقف عند الحذقة لنعرف ما المقصود بها؟ وما علاقتها بتعليم القرآن؟
جاء في الصحاح حذق الصبي القرآن والعمل يحذق حذقا، وحذاقة وحذاقة إذا مهر فيه؛ وحذق بالكسر حذقا؛ ويقال لليوم الذي يختم فيه القرآن: هذا يوم حذاقه^(٦٤).

وعندما يصل المتعلم بالحفظ إلى منزلة "الحذقة" يقيم ما يشبه حفل "التخرج"، ليعلم جميع أهل البلد بلوغه الحذق. فيجتهد من أجل تكريم معلمه تقديراً له، وذلك من خلال ما سيجمعه من تبرعات، إذ جرت العادة أن يقوم المتعلم "بتزويق" لوحته وذلك بكتابة آيات قرآنية في وسط اللوحة تكون الآيات دالة على الحذقة التي وصلها المتعلم-، ويرسم في إطار اللوحة أشكال هندسية متناسقة ومزركشة بألوان مختلفة، ثم يحملها ويطوف بها في بلدته، وأحياناً يخرج إلى القرى المحاورة فيتبرعون له كل بحسب قدرته، وفي النهاية يقدم ما جمعه من تبرعات، وهبات لمعلمه اعترافاً بجميله الذي يبذله في تلقين القرآن الكريم. وكان التنافس شديداً بين المتخرجين في "تزويق" لوحاتهم، كل واحد يجتهد لتكون لوحته جذابة ويجمع أكثر من غيره.

أجور المعلمين والمدرسين في الكتاتيب: كانت أجور المعلمين في الكتاتيب تؤخذ من أولياء الأمور وكانت على شكل مبالغ نقدية أو مواد عينية (مواد غذائية أو غيرها) كان هذا أيام المرابطين والموحدين حين كانت تعطى مساعدات للطلاب وملابس وبعض وجبات الطعام. أما الدراسة في المسجد؛ فهي المرحلة الثانية، وهي عند بلوغ الطالب فكان المدرسين يأخذون أجورهم من الأهالي.^(٦٥)

(٦٢) القاضي عياض: الإعلام بحدود قواعد الإسلام: تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤م، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٦٣) القاضي عياض: الفنية في فهرس شيوخ عياض، ص ٢٧١-٢٨٣.

(٦٤) إسماعيل بن حماد المهرى، "الصحاح"، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ج ٦، دار العلم للملايين، ص ٤، بيروت، لبنان، ١٩٩٠، ص ١٤٥٦.

(٦٥) ابن سحنون: آداب المعلمين، ص ٦٧؛ الفاسي: الرسالة المفصلة، ج ٢، ص ١٣٤؛ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج ٤، ص ٢٣٩.

الإجازات العلمية: الإجازة في الاصطلاح الإسلامي معروفة وهي حالياً (الشهادة الدراسية) وتكون هذه الإجازة مدونة ومحتومة بختم الشيخ هذه الإجازة أصل من أصول العلوم كافة، لأنها بمثابة إذن أو رخصة، والإجازة لا تمنح إلا للذين أكملوا العلم الذي يرغبون بإجازته وكانوا على قدر كبير من العلم والحفظ والثقة في نقل ما تعلموا بصدق وأمانة، وهي أوسع من طرق تعليم الحديث والفقهاء^(٦٦)، فكان لزاماً على العالم عنده عودة إلى دياره يحمل إجازة في علمه من أين وهذا كان معروفاً بين المغرب والمشرق^(٦٧).

سابعاً: الحياة المدرسية في بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية:

حاولت الباحثة خلال هذا الجزء تلمس الحياة المدرسية باعتبارها ذلك التنظيم التربوي والإداري والمهني الذي كان يقوم عليه النظام التعليمي والذي يشمل: الأسلاك التعليمية، والمناهج والطرق الدراسية والموارد البشرية، والكفاءة المهنية للمدرسين، وبما أن ذلك لم يكن بمعزل عن الحراك الاجتماعي فإن الحياة المدرسية تجاوزت تلك الجوانب المهنية والتقنية وتأثرت أيضاً بنبض المجتمع باعتبارها إحدى منافذ إعادة إنتاج المجتمع، وأداة للتحكم في الزمن المدرسي باعتباره إيقاعاً اجتماعياً وليس زمناً بيولوجياً، وتناولت الباحثة بالتحليل مختلف أوجه الحياة المدرسية من خلال الأسلاك التعليمية التي تم تقسيمها إلى تعليم أولى شكل قاعدة النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال المرحلة الوسيطة باعتباره مكملاً للدور التربوي للأسرة ومتداخلاً معه، مبرزتاً بذلك المعارف والكفايات المطلوبة وأمكنة التدريس متمثلة في الكتاب وطرق التلقين التي كانت تعتمد على الحفظ^(٦٨).

أما النوع الثاني فهو التعليم المتوسط والعالي، والذي ارتبط بالتعليم النظامي، وقد انتظمت معالم هذا السلك خلال العهد المريني، وقد اختلفت مدة الدراسة به ومكانها وأهمية الشيوخ حسب ظروف الطالب كما تميزت علاقة المدرسين وطلبتهم بهذا السلك باندماج البعد التربوي بالبعد الاجتماعي، كما تميز بدور كبير للمتصوفة، وإلى جانب هذا التعليم نشط محو الأمية وتعليم الكبار، هذا الأخير الذي شكل إحدى دعائم المشاريع الإصلاحية للزعماء السياسيين بالمغرب والأندلس تمهيداً لقيام دولهم والإطاحة بخصومهم فقد اعتد على ذلك عبد الله بن ياسين أثناء التهيئ لقيام الدولة المرابطية من خلال تعليم القرآن والمذهب المالكي.^(٦٩)

(٦٦) القاضي عياض، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٦٧) ابن فرحون: الديباج المذهب، ص ٢٥٢ - ٢٧٣.

(٦٨) سعيد بن حمادة، النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، منشورات الزمن، عدد ١٢، ٢٠١١م.

(٦٩) ابن سحنون، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

نظم التعليم في بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية

ومن أوجه الحياة المدرسية التي تطرق إليها الباحثة المناهج والطرق التعليمية والإيقاعات المدرسية، فالمناهج اختلفت بين بلاد المغرب والأندلس حيث برمج المغاربة القرآن الكريم في التعليم الأولى وبعده علوم الخط بالمدارس، أما بالأندلس فكانت العادة أن يجمعوا التدريس بين القرآن وعلوم اللغة، لتختلف بذلك الكفايات باختلاف المناهج، أما الطرق التعليمية فتكاد تكون متشابهة بين العدوتين وأهمها السماع للفظ الشيخ، والعرض، والإملاء، أو التحديث والرواية، والإجازة، والمناظرة، والمناولة، والمذاكرة. لكن الأجازة كانت أشهر الطرق وتعنى ترخيص الشيخ لطالبه والإذن له بتبليغ ما تلقاه عنه. وفيما يخص الإيقاعات المدرسية فتميزت في الغالب بانطلاق الدراسة بعد صلاة الصبح، أو بين صلاتي المغرب والعشاء، أما بمدارس فاس المرينية، فكانت الدروس تلقى صباحاً ومساءً، وكانت تختلف باختلاف فصول السنة، أما العطل المدرسية الأسبوعية فكانت يوم الجمعة على غرار باقى الحرف لاعتبارات دينية، لتتحول بعد ذلك إلى يوم الأحد خلال العهد الوطاسي، وفي استقرائه للمواد البشرية والهيئة العاملة بالمدارس المغربية والأندلسية خلال العصر الوسيط، فقد تكونت زيادة على الطلبة من الإمام والمؤذن والمدرسين والقيم والبواب كل حسب اختصاصه، أما هيئة التدريس فقد تم التمييز بينها حسب التخصصات العلمية من جانب آخر تفاوتت الكفاءة العلمية للمدرسين بتفاوت مؤهلاتهم وأوضاعهم الاجتماعية والسلك الذي يمارسون فيه.

ثامناً: المشاريع الإصلاحية لنظام التعليم في بلاد المغرب

لقد كان من البديهي أن تعترض النظام التعليمي بالمغرب والأندلس معيقات تحد من فعاليته وجودته ونسبها الباحث من خلال دراسته إما إلى قلة كفاءة المدرسين، أو تراجع التطور الحضاري في العدوتين خصوصاً بعد معركة العقاب، وقد أدى إنشاء المدارس واقتصارها على المدن الكبرى إلى التحاق من هب ودب بكراسي التعليم، ومما زاد من معاناة النظام التعليمي الثغرات التي شابت مناهج التعليم ومقرراته واعتمادها على كثرة الاختصارات والأراجيز التعليمية، مما أخل بالبلاغة وعسر الفهم إضافة إلى سوء برمجة المقررات في بعض الأسلاك التعليمية، وضعفت الدراية بطرق التدريس، كل ذلك ساهم في تقشى ظاهرة الانقطاع عن الدراسة، ولتجاوز هذه الاختلالات التي شابت النظام التعليمي بالمغرب والأندلس، تعددت المشاريع الإصلاحية، وقد اقتصر الباحث على نموذجان للخطاب الإصلاحي للتعليم بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، وهما لكل من أبي بكر العربي

(٥٤٣هـ / ١٤٨٨م). وعبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) مع مقارنة بين الأنظمة الدراسية بين بلدان الغرب الإسلامي. (٧٠)

القانون التربوي لأبي بكر بن العربي المعافري:

وضع ابن العربي مشروعاً لإصلاح التعليم سماه "القانون"، وضع فيه أولويات التعليم الأولى والغاية من تعليم بعض المواد الدراسية وفق ترتيب زمني محدد حتى تحقق الغاية منها، وقد قدم ابن العربي بالموازاة مع ذلك البرنامج توجيهات تربوية كفيلة في نظره بتحقيق الكفايات المطلوبة في هذه المرحلة التعليمية، كما حدد شروط تمكن المتعلم من بلوغ مراميه، وبالمثل قنن العلاقة التربوية والأخلاقية التي تربط بين المعلم والمتعلم، بما يضمن حقوقهما وواجباتهم، مع تركيز ابن العربي على أهمية التشجيع على التعليم، وقد استمد المشروع الإصلاحى لابن العربي وجاهته حسب الكاتب مما ألفه من مصنفات في شؤون التربية والتعليم؛ مثل "كتاب آداب المعلمين"، و"مراقى الزلف"، الذى يتضمن منهجاً تربوياً وأخلاقياً رصينا فى تعليم الأطفال. علاوة على ذلك كان ابن العربي قد تلقى تعليمه الأول بأشبيلية وفق ذلك المنهاج الدراسى تقريباً وفقاً لما رواه عن طفولته وتعليمه.

المشروع التربوي لابن خلدون:

نوه ابن خلدون بالمشروع التربوي لابن العربي لكنه أبرز صعوبة تطبيقه على أرض الواقع، وبذلك ضمن مقدمته فصولاً تضمنت تصوره لإصلاح المناهج التعليمية التقليدية المضیعة للوقت والجهد فى نظره، مؤكداً على أهمية الاقتصار على المسائل المذهبية، كما اقترح مبدأ التدرج فى التربية والتكوين وذلك بأن يتلقى المتعلم فى البداية أساسيات العلوم بالشرح المجمع المنسجم مع مراحل نموه وجوانب شخصيته، مع مراعاة استعداد المتعلم وميوله التعليمية وقدراته الحسية، كما دعى إلى التخفيف من المقررات الدراسية باعتبار أثقال كاهل المتعلمين يزيد من أزمة النظام التعليمى، ولم يفت ابن خلدون التشديد على حسب تدبير الإيقاعات المدرسية ضماناً لجودة التعلم، وذلك بالتحذير من تمديد الحصص، أو الفصل بينهما لفترة طويلة. وينصح ابن خلدون باعتماد التخصص تركيزاً للجهود.

المقارنة بين المنظومة التعليمية بين بلاد المغرب ودول الغرب الإسلامي:

انطلاقاً من رؤية ابن خلدون عند قيام الباحثة بعقد مقارنة بين المناهج الدراسية فى بلاد المغرب بالمناهج الدراسية فى بلاد الأندلس فإن ذلك يفيد فى معرفة نوع المواد التعليمية

(٧٠) سعيد بن حمادة، مرجع سابق، ص ٦٠.

نظم التعليم فى بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية

الملقنة للأطفال، وأثر ذلك على القدرات المكتسبة خلال العصر الوسيط فى كل من المغرب الأقصى، والأندلس، وإفريقية. حيث كان فى المغرب الأقصى يتم التركيز على تدريس القرآن الكريم ورسمه فى الأقسام التحضيرية. أما فى الأندلس فيردفون تدريس القرآن الكريم علوم اللغة لتكون عوناً للطالب على الفهم، وهذا الخل المنهجي هو الذى فطن له ابن العربى - كما أشرنا سابقاً واقتراح تقديم العربية والشعر على باقى العلوم، أما فى إفريقية فقد تم توسيع قاعدة البرامج الدراسية، وذلك بالجمع بين القرآن الكريم والسنة النبوية وأوليات العلوم، وهكذا وبتباين المناهج الدراسية بين بلاد المغرب وبلاد الغرب الإسلامى كالأندلس تباينت ملكات وقدرات المتلقين فى كل قطر.

الخاتمة

تميزت فترة القرون الثلاثة الأخيرة من العصر الوسيط بانتشار التعليم فى كامل ربوع بلاد المغرب الأوسط، ولم يكن مقتصرًا على المدن فقط بل وصل إلى جميع القرى فى البوادي.

شهدت فترة الثلاثة قرون الأخيرة من العصر الوسيط، أرقى نهضة علمية فى بلاد المغرب، فقد وصل فيها العلم فى بعض مدنه درجة التنافس مع بقية مدن أصقاع العالم، وذلك لعناية الأولياء، والحكام للعلم، العلماء، وكثرة المراكز العلمية من مدارس، مساجد، فظهرت أسماء لامعة تركت لنا كما هائلاً من المؤلفات فى مختلف العلوم.

كانت دور العلم متنوعة ومتعددة ومنتشرة عبر مختلف أقطار المغرب الأوسط، سواء تعلق الأمر بالمساجد الجامعة أو المساجد الصغيرة التى انتشرت فى المدن والبوادي، وإلى جانبها رأينا المدارس التى كانت تستقبل الطلبة من مختلف الأعمار، ثم وجدناها طبقت حتى النظام الداخلى المعروف فى أيامنا، حيث كان الطلبة يبيتون فيها سنين عديدة، والتى أكد لنا الونشريسي أنها كانت كثيرة، وجعلها من مفسدات التعليم، كما كانت الزوايا المنتشرة هنا وهناك - خاصة فى هذا العصر الذى كثرت فيه الطرق الصوفية - والدكاكين أو الحوانيت التى كان يكثرها الأساتذة أو الآباء تقوم بدور مساعد وهام فى نشر التعليم. وكان المعلم أو المؤدب يقوم بدوره التعليمى فى المدن وفى البوادي على السواء، وكان له أجر على ذلك سواء من الأحباس أو من أهل المتعلمين، الذين سعوا لتعليم أبنائهم، وقد أجاز بعض الفقهاء منح جزء من أموال الزكاة للتلاميذ والطلبة الذين لا يملكون مصاريف التعليم.

أما الأساس الثالث للعملية التعليمية وهو المنهج، فقد كان واضحاً مما تقدم أنه اقتصر على العلوم الدينية التى كان على رأسها القرآن الكريم وحديث النبى (p). ثم يأتى الفقه (الحلال والحرام) فى المرتبة الثانية، والذى اختص بمذهب الإمام مالك، لكون كل الفقهاء والعلماء والمؤدبين فى ذلك الوقت كانوا مالكية، أما فى المرتبة الثالثة فقد جاء "علم الكلام والجدل و علم القياس والنظر والاستدلال بأدلة المعانى والمعقول". وهى علوم دخيلة كما أشار الونشريسي الذى اعترض على تدريسيها.

بعد هذه الدراسة عن نظم التعليم فى بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية نجد أن المغرب قد استفاد ما فائدة من الدين الحنيف وأخذ من علوم القرآن ما أخذ حتى أن الأندلس كانت المسرح الحقيقى لعرض إمكانات العلماء المغاربة فى خلق مستوى علمى

نظم التعليم فى بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية

عال فى هذه البلاد التى اشتغفت بالعلم، ثم عادت الجميل للمغرب بأن أخذت هى تنشر العلوم فيه، فكانت العملية تبادلية توحى برقى فكر العلماء، وعدم تحيزهم لبلد أو حدود أو قومية فى نشر العلوم.

لقد كان هدف الباحثة من خلال تحليلها لمختلف مباحث هذه الدراسة هو الوقوف على عدد من القضايا التى تدخل ضمن اللامفكر فيه لدى المهتمين بالبحث التاريخى، رغم أهميتها فى التاريخ الاقتصادى، والاجتماعى، والسياسى، والثقافى خلال العصر الوسيط، ومن خلال الدراسة تبين الموقف الايجابى لمختلف فئات المجتمع والدولة من المسألة التعليمية، وقيمة الرحلة العلمية فى المنظومة التعليمية الوسيطة قبل أن تتراجع لحساب التعليم المدرسى النظامى المرتبط بالتحويلات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية لبلاد المغرب والأندلس، مما جعله فى بؤرة التجاذبات، أما المناهج والطرق فاختلفت باختلاف الأسلاك والغايات وكفاءات المدرسين.

ولا يمكن تصور نهضة اقتصادية واجتماعية وثقافية دون إرساء نظم تعليمية تطرح أفقاً لها ضمان الكرامة الإنسانية، وفى هذا السياق لن تصل هذه النظم التعليمية إلى أهدافها إلا بالإعداد الجيد لمختلف الأطر المكلفة بتنفيذ برامجها وعلى رأسهم هيئة التدريس، ويمكن القول أن تقديم خدمة تعليمية جيدة رهين بالمستوى الكمي والنوعي لهيئة التدريس، ورهين أيضاً بحسن تدبير وتوزيع الموارد المالية والبشرية فى تناغم تام مع التحويلات التى تشهدها البنية المجتمعية المغربية، ومن هنا تبرز أهمية التخطيط الاستراتيجى الذى لن يبلغ نتائجه إلا باعتباره جزءاً فى مشروع مجتمعي متكامل موفر له كل شروط النجاح والتطور.

الخلاصة الأساسية التى توصل إليها الباحثة فى دراسته أن التعليم يتقدم بتقديم المجتمع ويتخلف بتخلفه، مما يكسب البحث التاريخى مكانته، ويدلل على راهنية بعض قضاياها. ومن خلال هذه الدراسة نحاول تجاوز المقاربات التاريخية التقليدية، واقتحام قضايا منسية ومسكوت عنها ومرتبطة بلب انشغالات المجتمع، وهو ما سيساعد لا محالة فى حل أخطاء اليوم باستحضار أخطاء الأمس وهفواته.

قائمة المصادر والمراجع

١. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين- المجتمع، الذهنيات، الأولياء، تطوان، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، ٢٠٠٤م.
٢. إبراهيم على العكش: التربية والتعليم في الأندلس، ط١، دار الفيحاء، عمان، ١٩٨٦م.
٣. ابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعي، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصرقي، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.
٤. ابن سحنون محمد (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م)، آداب المعلمين، منشور ضمن كتاب الفكر التربوي عند ابن سحنون والفاصي، إشراف عبد الأمير شمس الدين، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٥م.
٥. أبو زكريا يحيى بن موسى المغيلي المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق مختار حساني، الجزائر؛ دار الكتاب العربي، ٢٠٠٩م.
٦. أبو عبد الله بن أحمد الشماخ: الأدلة البيئية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر محمد المعموري، نشر الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨٤م.
٧. أبو علي بن محمد بن عبد الملك ابن القطان: نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: محمود علي مكي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإسلامية، تطوان، د.ت.
٨. أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، ج ٢.
٩. أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧.
١٠. إسماعيل بن حماد المهري، "الصباح"، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ج ٦، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.
١١. بشير رمضان التليسي، "الاتجاهات الثقافية في الغرب الإسلامي"، دار المدار الإسلامي، بنغازي، ليبيا، ٢٠٠٣.
١٢. حسين كريم عجيل: الحياة العلمية في مدينة بلنسية، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٩٧٦م.
١٣. خليل طوطح: التربية عند العرب، المطبعة التجارية، القدس، د.ت.
١٤. روبرت برنشفيك: تاريخ دولة إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣- ١٥ الميلادي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤م.
١٥. سعيد بن حمادة، النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، منشورات الزمن، عدد ١٢، ٢٠١١م.
١٦. سعيد بنحمادة، النظام التعليمي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، ١٢٤، منشورات الأمن، المغرب، ٢٠١١م، ص ١٢٣

- نظم التعليم في بلاد المغرب أصولها وتأثيراتها الأندلسية**
١٧. عباس بن إبراهيم المراكشي: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ط١، المطبعة الجديدة، (فاس ١٩٣٧م)، ص١١٥-١١٦.
١٨. عبد الحليم عويس، دولة بنى حماد، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط٢، القاهرة، مصر.
١٩. عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني- حياته وآثاره- الجزائر؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.
٢٠. عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٩م.
٢١. عبد المالك بكاي، "أسرة الريفية في المغرب الأوسط من القرن ٧- ١٠ هـ/ ١٣- ١٦م"، مجلة العلوم الاجتماعية العدد ١٧، سبتمبر ٢٠١٣.
٢٢. على عشي، "المغرب الأوسط في العهد الموحدى، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، ٢٠١٢م.
٢٣. قاسمى بختاوي؛ التعليم بالكتاب بالمغرب الأوسط أيام حكم بنى عبد الواد"، دورية كان التاريخية، العدد الثاني عشر، جويلية ٢٠١١م.
٢٤. القاضى عياض: الإعلام بحدود قواعد الإسلام: تحقيق: محمد بن تاويت الطنجى، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٤م.
٢٥. القاضى عياض: الألماع إلى معرفة أصول الرواية والسماع، تحقيق: السيد أحمد الصقر، ط١، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٧٠م.
٢٦. أبو العباس شهاب التلمساني المقرئ: أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض، تحقيق: مصطفى السقا، ج٣، القاهرة.
٢٧. محمد التلمساني ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن، تحقيق: الدكتورة ماريا حيسوس بيفرا، مطبعة أحمد زبانه، الجزائر، ١٩٨١م.
٢٨. محمد فتحة النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث فى تاريخ الغرب الإسلامى من القرن ٦ إلى ٩ هـ/ ١٢- ١٥م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ١٩٩٩م.
٢٩. محمد مرتضى الزبيدى، تاج العروس، ج٣٧، تحقيق مصطفى حجازى، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ٢٠٠١م.
٣٠. الونشريسى (أبو العباس أحمد بن يحيى ت ٩١ هـ/ ١٥١١م)، "المعيار والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"، ج٧، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨١م.
٣١. يوسف بن يحيى بن عيسى التادلى ابن الزييات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقق: أودلف فورة، مطبوعات إفريقية الشمالية، الفنية، الرباط، ١٩٥٨م.

د/ فوزية محمد نوح

٠١٠٠٢٠٣١٣٥٥

مجلة بحوث كلية الآداب

١٩٠٦